بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأنبياء

﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾﴾

يعني: ﴿ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ﴾ وقت ﴿حِسَابُهُمْ﴾ وهو يوم القيامة ﴿وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ﴾ عن ذلك بانشغالهم بالدنيا ومتاعها الزائل ﴿مُّعْرِضُونَ﴾، والعجيب أنه: إذا زالت عنهم هذه الغفلة بعض الشيء، صاروا معرضين عن هذا اليوم، والإيمان به، والاستعداد له، وهذا الكلام، وإن كان لفظه للكافرين، فهو للجميع تنبيه، وتحذير..!!

ومن أحوال هؤلاء الذين ﴿هُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ عن يوم القيامة هذا، أنه:

﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾﴾

أي: ﴿مَا يَأْتِيهِم﴾ ويتلى عليهم ﴿مِّن ذِكْرٍ﴾ من القرآن، الذي نزل على محمد ﷺ ﴿مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾ شيئًا فشيئًا ﴿إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ﴾ منصرفون عنه ﴿يَلْعَبُونَ﴾ يستهزئون به، ويعرضون عنه. وما ذلك الحال إلَّا لأنه..

﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾﴾

أي: أن سبب ما هم فيه أمور:

الأول: أنه ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ فهي مشغولة عن هذا القرآن، وما فيه من إنذار

وتخويف باللهو واللعب.

الثاني: أن الرسول إليهم بشر مثلهم، ﴿وَأَسَرُّواْ﴾ بالغوا في إخفاء ﴿ٱلنَّجْوَىٰ﴾ وهو الكلام الذي يدور بينهم، حقًّا إنهم هم ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾.

ماذا يقولون..؟ يقولون ﴿هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ فبماذا يمتاز عليكم حتىٰ يكون رسولًا؟ هلَّا كان ملكًا؟ هلَّا كان واحدًا من القريتين عظيماً؟

الثالث: أنه ساحر يخدعكم ﴿أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ﴾ وتصدقونه، ﴿وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ وفي كامل وعيكم؟ هذا هو موقف الكافرين من محمد ﷺ، ومما جاء به، ومما خوفهم منه.

ويكون رد النبي ﷺ عليهم:

﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم مهددًا ﴿رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ﴾ ويعلم سركم وجهركم، وطعنكم، واستهزاءكم ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لكل شيء، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بكل شيء، لا يعجزه عن عقابكم شيء سبحانه وتعالىٰ.

ثم يكمل القرآن باقي الأسباب التي جعلتهم ﴿فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ١] عن القرآن ويلعبون ويستهزئون، فيقول المولىٰ عز وجل:

﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾﴾

السبب الرابع لتكذيبهم: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ﴾ علىٰ القرآن إنه ﴿أَضْغَٰثُ﴾ أوهام وتخاريف ﴿أَحْلَٰمٍ﴾ يراها محمد في نومه.

السبب الخامس: أنه أَلَّفَهُ من نفسه، واخترعه من عنده ﴿بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ﴾.

السبب السادس: أنه شاعر، يهيم في أودية الشعر، وتخاريف الشعراء، ويدعي أنه نبي ﴿بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وما أتىٰ به شعر.

السبب السابع: ليست معه آية تكون علامة علىٰ صدقه في دعواه

﴿فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ﴾ ومعهم الآيات؛ لنصدقه فيما يقول.

ويكون الرد عليهم، والتثبيت للنبي ﷺ:

﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾﴾

إنهم يُكذِّبون، ويطلبون هذه الآيات ليؤمنوا؟! لن يؤمنوا، حيث إنه ﴿مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ﴾ جاءتها الآيات، ولذلك ﴿أَهْلَكْنَٰهَآ﴾.

﴿أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ ؟ كلا!!

ثم هم يقولون: أنت بشر مثلهم، ولمَ لَمْ تكن ملكًا؟

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾﴾

أي: هذه ليست علة لعدم إيمانهم، فنحن ﴿مَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ﴾ من رسل ﴿إِلَّا﴾ كانوا ﴿رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾، ولم يكونوا ملائكة، وإذا لم تكونوا مصدقين ﴿فَسْـَٔلُوٓا۟﴾ العلماء ﴿أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ من قبلكم، الذين أنزل عليهم التوراة والإنجيل، فأنتم تصدقونهم ﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

و ـ هؤلاء الأنبياء السابقون ﴿مَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا﴾ أي: أجسادًا ﴿لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ بل كانوا يأكلونه ﴿وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ﴾ في الدنيا.

﴿ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ﴾ بإهلاك أعدائهم ﴿فَأَنجَيْنَٰهُمْ﴾ من أذاهم وأنجينا معهم ﴿مَن نَّشَآءُ﴾ من أتباعهم، المؤمنين بهم، المصدقين لهم، ﴿وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ المكذبين لهم، وفي إعلان قوي وتنبيه واضح يقول ربنا لهذه الأمة:

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾﴾

يعني: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا﴾ هو القرآن الكريم ﴿فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم إذا تمسكتم به، وعزكم إذا عملتم بما فيه.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ذلك، وتدركون هذه النعمة، وتتمسكون بهذا الشرف، فتؤمنون، وتلتزمون، وتتفوقون، وتقودون به الدنيا وأهلها إلىٰ بر الأمان والسلام..؟

وتعود آيات السورة إلىٰ التحذير والإنذار للّاهين المعرضين المكذبين، فيقول العزيز الجبار:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾

يعني: اذكر لهؤلاء المكذبين، وأخبرهم ﴿كَمْ قَصَمْنَا﴾ أهلكنا ﴿مِن﴾ أهل ﴿قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾ أي: كافرة طاغية، بسبب كفرهم وطغيانهم، ﴿وَأَنشَأْنَا﴾ خلقنا ﴿بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟﴾ أي: شعروا، وهم أهل القرية الظالمة ﴿بَأْسَنَآ﴾ عذابنا، ورأوا مقدمات إهلاكنا لهم ﴿إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ﴾ يفرون هروبًا من العذاب.

وهنا قيل لهم: ﴿لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾ من نعيم الدنيا ومتاعها الذي طغيتم بسببه ﴿وَمَسَٰكِنِكُمْ﴾ التي عصيتم الله فيها، وظلمتم عباده سبحانه، ﴿لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ﴾ وهذا من باب الاستهزاء بهم، أي: لعلكم تسألون عما جرىٰ لكم ونزل بكم، فتخبرون مَن يسألكم عن علم ويقين ومشاهدة.

وعلىٰ الفور.. ﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ﴾ يا حسرتنا ويا هلاكنا ﴿إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا بكفرنا، ولغيرنا بطغياننا ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ﴾ وهي قولهم: ﴿يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾، ﴿دَعْوَىٰهُمْ﴾ التي يكررونها، ويدعون بها علىٰ أنفسهم ﴿حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ﴾ فصاروا ﴿حَصِيدًا﴾ مثل الزرع الذي انتهى عمره، وتم حصده

﴿خَٰمِدِينَ﴾ لا حس ولا حركة فيهم، فهل تعتبرون بما حدث لهذه القرىٰ التي كانت ظالمة؟ وهل تؤمنون؟

هذا، وإذا كان رب العزة قد بين أنه أهلك المكذبين وقصم ظهورهم، فإن ذلك منه: عدلًا لا لعبًا، والدليل علىٰ ذلك قوله تعالىٰ:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾﴾

نعم، ليس شأننا اللعب ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ علىٰ هذا الشكل البديع العجيب ﴿لَٰعِبِينَ﴾ بل للدلالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا، ونفع عبادنا.

واللعب: لهو وعبث، ونحن:

﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

يعني: ﴿لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا﴾ نلعب به ونتسلى: من زوجة أو ولد، أو عذاب للمكذبين، لمَا قد تفهمون ﴿لَّٱتَّخَذْنَٰهُ﴾ أي: هذا اللهو ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ أي: من عندنا نحن لا من عندكم، ودون أن نخلق هذا الخلق بالمرة ﴿إِن كُنَّا﴾ ممن يريد اللّهو، أو كنا ﴿فَٰعِلِينَ﴾ له، ونحن لا نريده، ولا نفعله.

ليس الأمر أبدًا هكذا..

﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾

﴿بَلْ﴾ شأننا وأمرنا: أننا ﴿نَقْذِفُ﴾ نرمي بشدة ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ وهو الإيمان ودلائله ﴿عَلَى ٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو الكفر وشبهاته ﴿فَيَدْمَغُهُۥ﴾ أي: يدحضه، ويذهبه ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ أي: الباطل ﴿زَاهِقٌ ۚ﴾ ذاهب، يُمحىٰ دون أثر يتركه، أما أنتم يا أهل الباطل فـ ﴿لَكُمُ ٱلْوَيْلُ﴾ والهلاك ﴿مِمَّا تَصِفُونَ﴾ وتقولون علىٰ الله ما لا تعلمون مما لا يليق به سبحانه، وتقولون علىٰ الرسول ﷺ ما ليس فيه، من أنه: شاعر، أو ساحر، أو علىٰ القرآن أنه افتراه.

لمّا نفىٰ رب العزة اللعب عن نفسه، فكأنه نفىٰ حاجته عز وجل إلىٰ غيره، ونفي

الحاجة هذا: لا يكون إلَّا عند توافر كمال القدرة، لذلك قال عز من قائل:

﴿وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾﴾

يعني: كيف يحتاج المولىٰ إلىٰ ما تصفون و ـ هو الذي ﴿لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خلقًا وملكًا، فهو الغني عن كل شيء، الذي لا يحتاج إلىٰ أي شيء.

كيف يحتاج المولىٰ إلىٰ ما تصفون، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ﴾ من الملائكة ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ﴾، ﴿وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ولا يتعبون، بل ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ تسبيحهم دائم متصل، كالتنفس عند الإنسان الحي.

إنّ الكافرين لم يكتفوا بما وصفوا الله تعالىٰ به.. مما لا يليق بذاته، بل تجاوزوا القول إلىٰ الفعل، يقول المولى عنهم:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

﴿أَمِ﴾ : بمعنى بل، يعني: بل اتخذ هؤلاء ﴿ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ كالأصنام الحجرية، والذهبية، والفضية..إلخ هل يقولون عن هذه الآلهة ﴿هُمْ يُنشِرُونَ﴾ أي: يحيون الموتىٰ ويبعثونهم؟ لا، لا يستطيعون قول هذا. إذًا: لا يكون إلٰهًا، إلَّا مَن يحيي الموتىٰ. كما أنه:

﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ﴾ يعني: السمٰوات والأرض ﴿ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ غير الله معه سبحانه، كما يدّعي هؤلاء المعرضون ﴿لَفَسَدَتَا﴾ لخربتا، وهذا قول كبير، ووصف خطير في حق الله تعالىٰ.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ﴾ خالقه، تنزه وتعالىٰ ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من هذه الأقوال الفارغة.

فهو الإله القادر، الواحد الأحد.

﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾

أي: ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ من أحد ﴿عَمَّا يَفْعَلُ﴾ لأنه المالك الحقيقي والمحاسب الواحد ﴿وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ﴾ ويحاسبون عما فعلوا؛ حيث إنهم عبيد مملوكون.

ثم يكرر ربنا تبارك وتعالىٰ الحديث عن قضية اتخاذهم آلهة غير الله، استعظامًا لكفرهم، وتعجيزًا لهم عن وجود حجة لهم في ذلك، حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿أَمِ﴾: أيضًا بمعنىٰ بل، يعني: بل اتخذ هؤلاء ﴿مِّن دُونِهِۦٓ﴾ من غيره سبحانه ﴿ءَالِهَةً﴾ يعبدونها، كالأصنام، وغيرها إن كان لهم دليل علىٰ ذلك ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ﴾ دليلكم الذي دفعكم إلىٰ هذا، إنهم لن يأتوا بشيء من دليل علىٰ ما يقولون، لذلك قل أنت: ﴿هَـٰذَا﴾ هو القرآن ﴿ذِكْرُ مَن مَّعِىَ﴾ من أمتي، وهذه الكتب السابقة ﴿ذِكْرُ مَن قَبْلِى﴾ من الأمم المتقدمة وهو وهي يقولون، ويثبتون: أنه لا إلٰه إلا الله وحده ـ وهذه هي الحقيقة، ولكن ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هذا ﴿ٱلْحَقَّ﴾ ولذلك ﴿فَهُم مُّعْرِضُونَ﴾ عن الإيمان.

وليس ذلك التوحيد في القرآن والكتب المتقدمة فقط، بل أيضًا:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ كذلك ﴿مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ﴾ يا محمد ﴿مِّن رَّسُولٍ﴾ في أمة من الأمم ﴿إِلَّا﴾ وكنا ﴿نُوحِىٓ إِلَيْهِ﴾ بهذا التوحيد، وهو ﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾ الواحد الأحد المستحق للعبادة ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ أي: وحدوني، وأطيعوني.

هذا، وبعد أن نفىٰ ربنا سبحانه وتعالىٰ بالدليل الواضح عن نفسه شبهة الشريك والضد، بدأت الآيات الكريمة تنفي عن الله تعالى شبهة اتخاذ الولد. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا سُبْحَـٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ هناك من ﴿قَالُوا۟﴾ كذبًا وزورًا ﴿ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا﴾ حيث قالوا:

الملائكة بنات الله، ويرد الله عليهم بقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزه وتعالىٰ عن ذلك علوًّا كبيرًا ﴿بَلْ﴾ هؤلاء الذين قالوا عنهم إنهم بنات الله، ما هم إلَّا ﴿عِبَادٌ﴾ لله تعالىٰ ثم وصفهم ربنا بعدة صفات:

الأولىٰ: ﴿مُّكْرَمُونَ﴾ عنده عز وجل، حيث: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الثانية والثالثة: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾

يعني: أنهم لا يقدمون قولهم علىٰ قوله تبارك وتعالىٰ، فهم في غاية الأدب مع قول الله وحكمه.

كما أنهم ـ في الصفة الثالثة ـ مطيعون لله في أفعالهم ﴿وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾.

ثم يقول سبحانه وتعالىٰ عن باقي صفاتهم:

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

هذه الآية تحدد الصفات التالية:

الصفة الرابعة: أنهم في منتهىٰ الخضوع، وكمال العبودية؛ حيث إنهم علموا جيدًا أنه سبحانه ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ مما عملوه ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مما لم يعملوه.

الصفة الخامسة: أنهم لكمال عبوديتهم ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا﴾ بإذنه ﴿لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ له شفاعتهم.

الصفة السادسة: أنهم ﴿مِّنْ خَشْيَتِهِۦ﴾ أي: من خشيتهم من ربهم ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون.

الصفة السابعة: أنهم لا يدّعون الألوهية.

يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾

وهذا لم يحدث منهم إطلاقًا، وعلىٰ فرض أنه يحدث، فإن ﴿مَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ﴾ أي: من دون الله ﴿فَذَٰلِكَ﴾ القائل ﴿نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ خالدًا فيها مخلدًا و ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الجزاء ﴿نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الكافرين أيضًا.

وبعد هذه الردود القوية علىٰ فساد أقوالهم، يسوق المولىٰ عز وجل الدلائل علىٰ وجود الصانع الحكيم، وتنزهه عن الشريك والنظير والشبيه، وهذه الدلائل في ذاتها رد بليغ علىٰ عبدة غير الله، حيث يقول سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ يعني ﴿أ﴾ جهل ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ ولم يعلموا هذه الأنواع من الأدلة الواضحة، التي تقودهم إلىٰ الإيمان..؟ وهذه الأنواع المذكورة في هذه الآيات الكريمة: ستة:

النوع الأول: فصل السموات والأرض ﴿أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا﴾ أي: ملتصقتين ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ يعني: ففصلناهما عن بعضهما البعض.

وهذا يتفق ويؤكد ما وصل إليه العلم الحديث، من أن بعض المجرات تنطلق بسرعة هائلة خارجة عن مركز الكون، مما يدل علىٰ أن هذا الكون كان كتلة واحدة، ملتصقة بعضها ببعض.

النوع الثاني: خلق كل شيء من الماء ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ﴾ أي:

خلقنا كل شيء من الماء، وذلك لفرط احتياجه له، ثم يقول ربنا: ﴿أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ بوحدانيتي، وقدرتي؟

النوع الثالث: تثبيت الأرض بالجبال ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ﴾ أي: جبالًا ﴿أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ حتىٰ لا تتحرك بهم وتهتز، فلا يستقرون عليها، ولا ينتفعون بها.

النوع الرابع: شق الطرق الواسعة في الأرض والجبال ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا﴾ أي: طرقًا ﴿سُبُلًا﴾ نافذة غير مسدودة، يمرون خلالها، وينتفعون بها.

ثم يقول ربنا: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بهذا الدليل إلىٰ وحدانية الله، وبهذه الطرق إلىٰ ما يريدون الوصول إليه.

النوع الخامس: حفظ السماء ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا﴾ للأرض، كسقف البيت ﴿مَّحْفُوظًا﴾ عن السقوط من جهة، ومحفوظًا بالشهب من الشياطين.

وهذه السماء مليئة بالآيات، كالشمس والقمر والنجوم وخلافه، وكلها دالة علىٰ وجود الله.

﴿وَهُمْ﴾ أي الكفار، عنها و ﴿عَنْ ءَايَٰتِهَا﴾ هذه ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ عن إعمال عقولهم فيها، والإيمان بسببها.

النوع السادس: خلق الليل والنهار وخلق الشمس والقمر ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ﴾ أي: سماء ﴿يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون كل ذلك بقدرته وحده سبحانه، فهل يعتبرون، فيؤمنون؟

وهذه الأنواع من الدلائل، هي من أصول نعم الدنيا، ولذلك يتبعها الله عز وجل بما يدل به علىٰ أنها دار ابتلاء، نعيمها فانٍ، بل إن مَن خلقت له وهو الإنسان سيموت ولذلك ينبغي أن يتوصل بها ـ عن طريق الطاعة ـ إلىٰ نعيم الآخرة فيقول سبحانه:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِين مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

نزلت هذه الآية لمَّا قال الكفار شماتة: إن محمدًا سيموت، فقال ربنا: نعم سيموت، ولكن هل سيبقىٰ أحد في هذه الدنيا من البشر؟ كلا.

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ﴾ كان ﴿مِّن قَبْلِكَ﴾ ولا ممن سيأتي بعدك ﴿ٱلْخُلْدَ﴾ أي: البقاء الدائم، إذْ ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ سبحانه [القصص: ٨٨].

فلا تتألم من شماتتهم، ولا تتأثر بكلامهم فهم سيموتون أيضًا ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ فيها؟.

كلا، بل أكثر من هذا: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ في الدنيا، ﴿وَنَبْلُوكُم﴾ نختبركم ﴿بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ﴾ فيها من فقر وغنى، وصحة ومرض، ﴿فِتْنَةً﴾ لننظر أتصبرون وتشكرون؛ فتؤجرون أولًا.

﴿و﴾ بعد هذه الحياة وما فيها ابتلاء ﴿إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ بالموت، فنجازيكم على أعمالكم.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني: هؤلاء الكفار لا يشمتون بك فقط، بل يهزؤون، ويقولون لبعضهم البعض ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بسوء ويعيبها، ويسفه أحلامكم أيضًا؟ ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الذي هو القرآن ـ في ذات الوقت ـ ﴿هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ يعني: كافرون بالله، وبالرسول، وبالقرآن.

هذا، ومن كثرة استهزائهم، كانوا يستعجلون العذاب الذي يهددهم به رب العزة سبحانه، لذلك يقول جل جلاله:

﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾﴾

يعني: ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عجولًا في كل أموره، لذلك ينبغي عليه جهاد نفسه في التأني والتعقل، وعلى الكفار أن لا ينساقوا وراء طبعهم، فيستعجلوا العذاب، وإلَّا فيقول تعالى لهم: ﴿سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى﴾ الدالة على وحدانيتي، وقدرتي، فإن عصيتم وكفرتم: أعذبكم لا محالة، ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ﴾ عذابكم، فهو آتيكم.

وهؤلاء الكفار يستهزؤون أيضًا..

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: متىٰ تأتي القيامة التي تتحدثون عنها، لنرىٰ العذاب الذي تهددوننا به؟ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ فيما تقولون!!

ويرد عليهم الحكيم الخبير قائلًا:

﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

يعني: ﴿لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هذا العذاب ﴿حِينَ لَا يَكُفُّونَ﴾ ويمنعون ﴿عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ﴾ بأنفسهم ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ بغيرهم لمَا كفروا، ولمَا استهزؤوا، ولمَا استعجلوا موعد هذا العذاب.

وأما عن موعد القيامة، فيقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿بَلْ تَأْتِيهِم﴾ هذه القيامة التي يسألون عن موعدها استهزاءً ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة ﴿فَتَبْهَتُهُمْ﴾ تجعلهم حيارىٰ تائهين، عاجزين عن التصرف، ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا﴾ ودفعها عنهم، ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ ويؤجلون إلىٰ موعد آخر.

هذا، ولمَّا كانت أقوال الكفار للنبي ﷺ استهزاءً، فقد قال له ربه:

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾﴾

يعني: لا تهتم باستهزائهم، فلك أسوة فيمن سبقك من إخوانك من الأنبياء حيث استهزأ بهم أقوامهم ﴿فَحَاقَ﴾ أي: نزل بهؤلاء الأقوام ﴿بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم﴾ من العذاب ﴿مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وينكرون.

ثم أمره أن يقول لهؤلاء المستهزئين مهددًا:

﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَن يَكْلَؤُكُم﴾ يحفظكم ﴿بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ﴾ عذاب ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ﴾ إن نزل بكم؟ لا أحد يفهم، ولا أحد يجيب.

﴿بَلْ هُمْ﴾ لغفلتهم ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّهِم﴾ وهو القرآن الذي يبين لهم ذلك ﴿مُّعْرِضُونَ﴾ معاندون.

ثم يكون التوبيخ، وذلك في قوله عز وجل:

﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾

يعني: هل لهم آلهة غيرنا ﴿تَمْنَعُهُم﴾ وتحفظهم مما يسوؤهم لا، لا إنهم ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ بأنفسهم أو بغيرهم ﴿نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾ من عذابنا، ﴿وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ﴾ أي: يجارون فلا يعذبون.

وأما ما هم فيه من الحفظ والعناية الآن، فليس كما قد يتوهموا أنه من آلهتهم، أو من عند أنفسهم، أو من غير ذلك.

﴿بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾﴾

أي: ﴿بَلْ﴾ الحقيقة أنا ﴿مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ بما أنعمنا به عليهم ﴿حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ﴾ فاغتروا بذلك، وشغلوا بالنعمة عن المنعم، وقست قلوبهم، وظنوا أنهم خالدون.

﴿أَفَلَا﴾ يتعظون، حين ﴿يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ﴾ وننزعها منهم، بعد بسط سلطانهم عليها، ونجعلها لغيرهم؟ ﴿أَفَهُمُ﴾ يظنون أنهم ﴿ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ لله ورسله كلا، فالله هو الغالب.

ثم يأمر الله رسوله ﷺ قائلًا:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾﴾

يعني: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ﴾ الذي هو القرآن، وهو من الله، وليس من عندي ولا من نفسي، ولكن اعلم أنه لا فائدة من قولك هذا لهم، حيث إنه ﴿لَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ﴾ وهم صم عن سماع الحق، فهم لا يسمعون، وإذا سمعوا لا يستجيبون ﴿إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ ويخوفون بالعذاب.

هؤلاء حالهم لا يتغير إلَّا إذا عاينوا العذاب وشاهدوه..

﴿وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾﴾

يعني: هؤلاء لا يعترفون بالحق، ولا يقرون بفساد موقفهم حتىٰ يمسهم العذاب، فإذا مسهم منه ولو القليل ﴿لَيَقُولُنَّ﴾ معترفين، نادمين، متحسرين ﴿يَٰوَيْلَنَآ﴾ وهلاكنا ﴿إِنَّا﴾ حقًا ﴿كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ وذلك يكون منهم في يوم القيامة، فاثبت أيها الداعي للحق علىٰ ما أنت عليه، وانتظر ما وعدناك به، في يوم القيامة.

يوم القيامة آت لا محالة:

﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾﴾

أي: ﴿وَنَضَعُ﴾ ونحضر ﴿ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ﴾ العدل، لميزان الأعمال وجزائها ﴿لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ أي: في يوم القيامة، ويكون الميزان بالعدل.

﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ﴾ من نقص حسنة، أو زيادة سيئة.

﴿وَإِن كَانَ﴾ العمل يزن ﴿مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي: متناهي في الصغر والضآلة، والحقارة ﴿أَتَيْنَا بِهَا ۗ﴾ لتوزن فلا نهملها، أو نهمل جزاءها.

﴿وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ عالمين بكل شيء، محصين له، محيطين به، محضرين له.

وإلىٰ هنا، وبعد أن تحدث ربنا فيما سبق من الآيات عن دلائل التوحيد والنبوة، والبعث، يبدأ في تقوية قلب النبي ﷺ، وتصبيره علىٰ ما ينال من أذاهم، وذلك بذكر

قصص بعض الأنبياء، وما نالهم من أذى أقوامهم، **ويبدأ ذلك بقصة موسىٰ** عليه السلام فيقول:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

أي: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ قبلك ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ وهي التوراة، الفارقة بين الحق والباطل، والحلال والحرام ﴿وَضِيَآءً﴾ بها ﴿وَذِكْرًا﴾ موعظة ﴿لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهم.. ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾﴾

فالمتقون هم:

أولًا: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ﴾ عذاب ﴿رَبَّهُم﴾ فيأتمرون بأمره، وينتهون عما نهى عنه ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ وهم مؤمنون بالله إيمانهم بما غاب عنهم.

ثانيًا: والذين ﴿هُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي: يوم القيامة، وما يحدث فيه ﴿مُشْفِقُونَ﴾ خائفون، ولذلك يمنعهم هذا الخوف من معصية الله.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾﴾

أي: ﴿وَهَٰذَا﴾ القرآن، الذي أنزلته علىٰ محمد كما أنزلت التوراة علىٰ موسىٰ ﴿ذِكْرٌ﴾ وشرف لكم، ورفعة لقدركم، وموعظة لسلوككم، ومنهج لحياتكم.

﴿مُّبَارَكٌ﴾ منافعه كثيرة، وعلومه وفيرة.

﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ علىٰ محمد وحياً، متلوًّا، متعبدًا به، مطلوبًا اتباعه والعمل به إلىٰ يوم القيامة، يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَأَنتُمْ﴾ أيها المعاندون الكافرون، بعد هذه الخصائص التي ذكرت، والمنافع في القرآن التي ظهرت.

﴿لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ أنه وحي من عند الله علىٰ محمد ﷺ؟ وهذا السؤال لهم فيه توبيخ، وفيه ـ كذلك ـ تهديد لهم بما ينتظرهم جزاء هذا الإنكار من العذاب.

ثم تكون القصة الثانية: وهي قصة إبراهيم عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ﴾ فضلًا منا ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ عليه السلام ﴿رُشْدَهُۥ﴾ أي: هداه لوجوه الصلاح في الدين والدنيا ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل موسىٰ عليه السلام ﴿وَكُنَّا بِهِۦ﴾ أي: بإبراهيم ﴿عَٰلِمِينَ﴾ أنه أهل لمَا آتيناه.

اذكر: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ﴾ منكرًا عليهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ﴾ الأصنام ﴿ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾ مقيمون ومستمرون علىٰ عبادتها؟

ولأنه ليس عندهم دليل صواب فيما يفعلون

وهنا: ﴿قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ له: نحن نقلد ﴿ءَابَآءَنَا﴾، فيما نفعل.

وهنا سفَّه أحلامهم، وعاب آباءهم، وبين أن كثرة المتمسكين بالباطل لا تجعله حقًّا

لذلك: ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾﴾

يعني: ﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ﴾ الذين تقلدونهم ﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحق ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح.

ولأنهم يستبعدون ضلال آبائهم، ويستبعدون عليه أن يكون جادًّا فيما يقول..

﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾

يعني: ﴿أَجِئْتَنَا﴾ في قولك هذا بالصدق ﴿أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ فيه؟

وعلىٰ الفور بيَّن لهم إبراهيم عليه السلام أن الأمر جد لا لعب فيه، وأن الحق واضح لا خفاء له، وكان هذا البيان منه؛ لفساد وبطلان ما هم فيه بالقول والفعل.

أولًا: بالقول حيث:

﴿قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ

﴿ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم هذه الأصنام ليست آلهتكم التي تستحق العبادة، وليست أربابكم التي تضر وتنفع ﴿بَل رَّبُّكُمْ﴾ الجدير بالعبادة، والذي يضر وينفع، والذي خلقكم هو ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ومن فيهما، وهو ﴿ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ﴾ أي: خلقهن وحده، ﴿وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم﴾ الذي قلته ﴿مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ أنه الحق دون ما سواه، ثم قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ وأكسرن ﴿أَصْنَٰمَكُم﴾ هذه ﴿بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟﴾ تنصرفوا ﴿مُدْبِرِينَ﴾ بعيدًا عنها.

ولم يقنعوا بكلامه، ولم يصدقوا تهديده. **فكان البيان ـ ثانيًا ـ** لفساد ما هم فيه بالفعل.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾

يعني: فانصرفوا، فجاء إلىٰ أصنامهم ومعه الفأس ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا﴾ أي: فكسرها كلها قطعًا صغيرة ﴿إِلَّا﴾ صنمًا ﴿كَبِيرًا﴾ تركه ﴿لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾ بالسؤال عما حدث، إذا ما رأوه واقفًا وحده بينهم؛ فلا يجيب، فيعرفون جهلهم، وخطأهم، فيتوبون ويؤمنون.

ولكن، لمَّا عادوا ورأوا المنظر، لم يفكروا في عجزها عن الدفاع عن نفسها، وأنها لذلك لا تصح أن تكون آلهة يعبدونها، بل سألوا عن فاعل ذلك.

﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ لبعضهم البعض ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا﴾ الذي نراه من التكسير والإهانة ﴿بِـَٔالِهَتِنَآ﴾؟ ثم قالوا. ﴿إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بتكسيرها، وتحقيرها.

ولم يسكتوا عما حدث لآلهتهم التي لم تدافع عن نفسها لعجزها، وراحوا يبحثون ويسألون عن الفاعل؛ حتىٰ وجدوا من:

﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

يعني: وجدوا من ﴿قَالُوا۟﴾ لهم: إنا ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ بالسوء إذ كان يقول

لبعض الناس ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وسألوهم من هذا الفتىٰ؟ قالوا: لا نعرفه، ولكن ﴿يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

وعلىٰ الفور صدر قرار، ضبط وإحضار..

﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾

أي: قال رؤساؤهم للجنود ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ﴾ أحضروه ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ﴾ علىٰ مرأىٰ ومسمع من الجميع ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قال، فنعاقبه علىٰ ما قال، ويشهد الجميع عقابه، فيكون ردعًا لغيره. وجاؤوا بهذا الفتىٰ إبراهيم، وبدأ التحقيق.

﴿قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾

أخبرنا مَن الذي فعل هذا بآلهتنا؟ أنت، أو غيرك؟

وأجاب عليه السلام ساخرًا:

﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ لهم مستهزئًا بعقولهم التي لا تفكر: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ الذي لم يُكسر ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾.

وعلىٰ هذا، فقد أثبت لنفسه هذا الفعل؛ لأنهم لا ينطقون، ثم قال: فاسألوهم إن أمكن ذلك.

وكان الرد بليغًا، والحجة واضحة..

﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾

يعني: فعادوا إلىٰ عقولهم يفكرون فيما قال، ويفكرون وعرفوا أن الحق ما قال: هم لا ينطقون، فكيف يفعلون؟ وعلىٰ هذا كيف يُعبدون؟ ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لأنفسهم ﴿إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ في عبادتكم لها، وليس الظالمون مَن كسرها، وهكذا أجرىٰ الله الحق علىٰ ألسنتهم.

ولكن أدركتهم الشقاوة، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾

أي: عادوا إلىٰ الكفر، ورجعوا إلىٰ الجدال وقالوا لإبراهيم عليه السلام: ما هذا الكلام الذي تقوله؟ ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ فكيف تقول ذلك؟

ولأن ذلك اعتراف منهم بعجز آلهتهم

﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾

يعني: ﴿قَالَ﴾ إبراهيم عليه السلام لهم ﴿أَ﴾ جهلتم إلىٰ هذا الحد ﴿فَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غيره ﴿مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا﴾ إن عبدتموه ﴿وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ إن لم تعبدوه، ثم قال ضجرًا: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ ولآلهتكم التي تعبدونها.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن هذه الأصنام، التي لا تضر ولا تنفع، لا تستحق العبادة، ولا تصلح لها، بل الذي يستحقها هو الله سبحانه وتعالىٰ؛ فآمنوا به واعبدوه.

إذن، هو الذي حطم آلهتهم، ولم يواصلوا الجدال، وعجزوا عن الجواب، فعدلوا إلىٰ منطق البغي والظلم والإرهاب شأن الطغاة، الظالمين، في كل زمان ومكان..

﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾

أي: ﴿قَالُوا۟﴾ لبعضهم البعض ﴿حَرِّقُوهُ﴾ عقابًا علىٰ ما فعل، وعلىٰ ما يقول، ﴿وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ بالانتقام لها منه ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ أي: راغبين في نصرتها وكان هذا هو قرارهم.

وأوقدوا النار، وقيدوا إبراهيم بالقيود، وألقوه في النار..

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

لقد أبطل الله طبيعة النار الحارقة، وجعلها ﴿بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ﴾ عبده ﴿إِبْرَٰهِيمَ﴾ لذي صدع بالحق، ووقف وحده ضد باطل قومه، مرضاة لله، فنجاه الله.

يقول رب العزة:

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

يعني: أرادوا، ودبروا، وكادوا له!! وأراد الله أمرًا غير ما أرادوا، وكان ما أراد الله هو النافذ ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ فيما أرادوا، ونجاه الله من الحريق.

وأخرجه الله بسلام من بينهم، وأتم عليه النعمة، حيث يقول سبحانه:

﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾

أي: ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ﴾ منهم، ومن نارهم، وأخرجناه ﴿وَلُوطًا﴾ ابن أخيه من ديارهم ﴿إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ وهي أرض الشام، ﴿ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الأنبياء، وانتشار هديهم بدين الله منها ﴿لِلْعَٰلَمِينَ﴾.

ثم أكثر من هذا..

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾

يعني: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾ أي: لإبراهيم، عطية منا ﴿إِسْحَٰقَ﴾ نبيًّا عندما سأل الله الولد قائلًا: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠].

﴿و﴾ ـ وهبنا له كذلك، ولد الولد، وهو ﴿يَعْقُوبَ﴾ نبيًا أيضًا ﴿نَافِلَةً﴾ زيادة على ما سأل، ﴿وَكُلًّا﴾ من إبراهيم وإسحٰق ويعقوب ﴿جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ﴾.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ بعد ذلك ﴿أَئِمَّةً﴾ في الدين ﴿يَهْدُونَ﴾ يدعون الناس إلى دين الله ﴿بِأَمْرِنَا﴾.

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ وهي جميع الأعمال الصالحة.

﴿و﴾ أمرناهم، بـ ﴿إِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ﴾ هم ومَن تبعهم.

﴿و﴾ ـ هكذا ﴿كَانُوا۟ لَنَا﴾ لا لغيرنا ﴿عَٰبِدِينَ﴾. وبذلك انتهت قصة إبراهيم عليه السلام.

ثم تكون القصة الثالثة وهي: قصة لوط عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾﴾

يعني: ﴿وَلُوطًا﴾ أيضًا ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ كما آتينا إبراهيم رشده من قبل والمراد: الحكمة في القول، والفعل، والعلم.. هو الفقه. أي: آتيناه حكمة في قوله وفعله، وفقهًا في عقله وقلبه.

وكذلك: ﴿نَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ من اللواط وغيره، ﴿إِنَّهُمْ﴾ أي: أهل هذه القرية ﴿كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ﴾ خارجين عن طاعة الله.ثم يقول: وأنعمنا عليه أيضًا بأن: ﴿أَدْخَلْنَٰهُ فِى رَحْمَتِنَآ﴾ جعلناه من أهل رحمتنا، وأدخلناه الجنة، حيث ﴿إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

ثم تكون القصة الرابعة وهي: قصة نوح عليه السلام. يقول تعالى ذكره:

﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ ـ اذكر ﴿نُوحًا﴾ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ دعا ربه ﴿مِن قَبْلُ﴾ أي: من قبل هؤلاء الأنبياء، قائلًا ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾ لي [القمر: ١٠].

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ حيث ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ [القمر: ١١ ـ ١٤]. ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ **وهو** الطوفان.

﴿وَنَصَرْنَٰهُ﴾ خلصناه ﴿مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ﴾ **الدالة على وحدانيتا**

وقدرتنا. حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ﴾ عاندوا ولم يؤمنوا ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

ثم تكون القصة الخامسة وهي: قصة داود وسليمان عليهما السلام. يقول الحق سبحانه:

﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ﴾ عليهما السلام ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ﴾ في الزرع، حين ﴿نَفَشَتْ فِيهِ﴾ دخلت فيه ﴿غَنَمُ ٱلْقَوْمِ﴾ فأفسدته.

﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ﴾ وحكومتهم في هذا الموضوع ﴿شَٰهِدِينَ﴾ عالمين، كما نحن في غيره وكان الحكم، ويبدو أنه كان مخالفًا للصواب، إذ قال تعالىٰ: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ أي: القضية وحكمها الصائب ﴿سُلَيْمَٰنَ﴾، ورجع داود إلىٰ حكم سليمان.

﴿وَكُلًّا﴾ من داود وسليمان ﴿ءَاتَيْنَا حُكْمًا﴾ نبوة ﴿وَعِلْمًا﴾ معرفة، ثم يذكر الله نعمه عليهما، فيقول عن إنعامه علىٰ داود عليه السلام: ﴿وَسَخَّرْنَا﴾ وذللنا ﴿مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه، ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ كذلك ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بتسبيحه.

﴿وَكُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ مع الأنبياء هذه الأمور العجيبة، تدليلًا لكم، وتثبيتًا لهم.

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ﴾ كذلك ﴿صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ﴾ وهي الدروع ﴿لِتُحْصِنَكُمْ﴾ وتحميكم ﴿مِّنۢ بَأْسِكُمْ﴾ في الحروب. ﴿فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ﴾ لله، بالإيمان والعبادة؟

ثم يقول عن إنعامه علىٰ سليمان عليه السلام:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ سخرنا كذلك ﴿لِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ ﴿... تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦] تارة، وتارة أخرىٰ ﴿عَاصِفَةً﴾ شديدة الهبوب ﴿تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بكثرة الأنهار، والثمار، وهي بلاد الشام.

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ﴾ مريدين ﴿عَٰلِمِينَ﴾ به. هذا ﴿وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ كذلك سخرنا ﴿مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ﴾ في البحار؛ لاستخراج كنوزها، ﴿وَيَعْمَلُونَ﴾ كذلك ﴿عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: غير الغوص في البحار؛ حيث كانوا ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ [سبأ: ١٣].

﴿وَكُنَّا لَهُمْ﴾ أي: لهذه الشياطين ﴿حَٰفِظِينَ﴾ من أن يفسدوا ما عملوه، أو يهملوا في أدائه، أو يزيغوا عنه ويتركوه.

ثم تكون القصة السادسة وهي: قصة أيوب عليه السلام. يقول الله تعالىٰ:

﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿أَيُّوبَ﴾ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ لمَّا ابتلي بفقد ماله وولده، وتمزيق جسده، وضيق عيشه، وهجر جميع الناس له إلَّا زوجته، مدة من الزمن، فدعا ربه قائلًا ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ كما ترىٰ ﴿وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ جميعًا.

وهكذا كما يقول الإمام النسفي : ألطف في السؤال؛ حيث ذكر نفسه بما يوجب الرحمة، وذكر ربه بغاية الرحمة، ولم يصرح بالمطلوب. يقول الرحمٰن الرحيم: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه.

﴿فَكَشَفْنَا﴾ بقدرتنا ﴿مَا﴾ نزل ﴿بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ إنعامًا عليه ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ﴾ حيث أحيا الله له أولاده بأعيانهم ورزقه كذلك ﴿وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ﴾ بالإنجاب. وكان ذلك ﴿رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ لأيوب، ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ لغيره من العابدين ليصبروا مثله، فينالوا من الثواب ما نال.

ثم تكون القصة السابعة وهي: قصة إسماعيل، وإدريس، وذي الكفل عليهم السلام، يقول تعالى ذكره:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ ـ اذكر ﴿إِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ﴾ و ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء كان ﴿مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على طاعة الله، الصابرين عن معصيته، الصابرين كذلك على الشدائد والمحن، الصابرين على احتمال الأذى في نصرة دين الله.

﴿و﴾ هؤلاء: قد ﴿أَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ﴾ بالإنعام عليهم بالنبوة، والقيام بأعمال البر والصلاح.

﴿إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ المصلحين، الذين لا يعكر صلاحهم كدر الفساد.

ثم تكون القصة الثامنة وهي: قصة يونس عليه السلام. يقول سبحانه:

﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿ذَا ٱلنُّونِ﴾ أي: صاحب الحوت، وهو يونس عليه السلام ﴿إِذ ذَّهَبَ﴾ بعيدًا عن قومه لمَّا دعاهم إلى الإيمان فلم يستجيبوا، وتركهم ﴿مُغَٰضِبًا﴾ لهم في عنادهم، ناقمًا عليهم كفرهم. ولكن لم يكن قد أُذِنَ له في ذلك؛ حيث كان عليه أن يصبر أكثر وأكثر حتى يؤذن له بالهجرة منهم، والبعد عنهم ﴿فَظَنَّ﴾ في بعده هذا الذي اختاره ﴿أَن لَّن نَّقْدِرَ﴾ نضيق ﴿عَلَيْهِ﴾ في اختياره للبقاء بينهم، أو البعد عنهم، فاختبرناه بالغرق، وبلع الحوت له، وبقائه تحت رعايتنا فترة في ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل، وعرف خطأه، وندم عليه، وتاب لربه.

﴿فَنَادَىٰ﴾ ربه وهو ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ قائلًا: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في ذهابي من بين قومي، وتركي لهم دون

إذن منك ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه، ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ بهذا الدعاء، وكما نجيناه ﴿كَذَٰلِكَ نُـْۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من عبادنا، إذا دعونا واستغاثوا بنا.

ثم تكون القصة التاسعة وهي: قصة زكريا عليه السلام. يقول الله عز وجل:

﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر ﴿زَكَرِيَّآ﴾ عليه السلام ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ داعيًا ﴿رَبَّهُۥ﴾ قائلًا: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا﴾ أي: هب لي ولدًا، واجعله وارثًا لي في مقام النبوة ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾.

﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ دعاءه.. ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ﴾ ولدًا هو ﴿يَحْيَىٰ﴾ عليه السلام.

﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ﴾ قبل ذلك ﴿زَوْجَهُۥ﴾ أي: زوجته، وجعلناها تأتي بهذا الولد بعد عقم، وكبر سن، وقد أجبنا مَن ذكرنا من الأنبياء دعوته، وحققنا له مطلبه، ومنهم زكريا على ما عرفت. حيث ﴿أَنَّهُمْ﴾ جميعًا ﴿كَانُوا۟﴾:

أولًا: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِى﴾ عمل ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ بجميع أنواعها.

ثانيًا: ﴿وَيَدْعُونَنَا﴾ أي: يعبدوننا ﴿رَغَبًا﴾ في رحمتنا ﴿وَرَهَبًا﴾ من عقابنا.

ثالثًا: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ متواضعين، مخبتين، خائفين.

ثم تكون القصة العاشرة وهي: قصة مريم عليها السلام. يقول ربنا تبارك وتعالى:

﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ اذكر مريم ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ﴾ حفظت ﴿فَرْجَهَا﴾ من الحلال ومن الحرام.

﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ أجرينا فيها ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ بعض الأرواح المخلوقة لنا، وهذا البعض هو: روح عيسى عليه السلام.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ﴾ عيسىٰ ﴿ءَايَةً﴾ دالة علىٰ وحدانيتنا وقدرتنا، ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ من الجن والإنس والملائكة، في كل زمان، وفي كل مكان.

وبعد أن ذكر الله تعالىٰ هذه الكوكبة من الأنبياء، خاطب الناس جميعًا، فقال عز وجل:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ۖ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ ۖ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ﴾ الأمة المتمثلة في هؤلاء الأنبياء الذين ذكروا هي ﴿أُمَّتُكُمْ﴾ التي إليها تنتسبون. وهي ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ وملة واحدة، هي أمة الإسلام، وملة الإسلام؛ فلا تفرطوا في الانضواء تحت لوائها، والاعتزاز بالانتساب إليها، والتشرف بها.

﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ لا إلٰه لكم، ولا رب لكم سواي ﴿فَٱعْبُدُونِ﴾ وأطيعون وحدي. هذا هو البيان الواضح، والأساس القوي. ﴿و﴾ لكن البشر ﴿تَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم﴾ دينهم الواحد، وهو الإسلام الذي عليه جميع الأنبياء، وجعلوه قطعًا وأجزاء، وكل أخذ بجزء منه. علىٰ كل حال ﴿كُلٌّ﴾ من هؤلاء الذين تفرقوا، وقطعوا أمر الدين، وكذلك الذين لم يتفرقوا، واجتمعوا مع الأنبياء علىٰ طريق الهدىٰ ﴿إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ﴾ فنجازي كل فريق بما يستحق.

﴿فَمَن يَعْمَلْ﴾ منهم شيئًا ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ علىٰ اختلاف أنواعها ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾، ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ﴾ ولا تضييع لثوابه، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ حافظون.

حثنا المولى علىٰ الانضواء تحت لواء أمة الأنبياء الواحدة، وهي الأمة المسلمة؛ ودعوة للإيمان، وعمل الصالحات، فقال تعالىٰ مبينًا:

﴿وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾﴾

يعني: قدرنا وأوجبنا ﴿عَلَىٰ﴾ كل ﴿قَرْيَةٍ﴾ أي: بلد أهلكنا أهلها بالموت، ﴿أَنَّهُمْ﴾ إليها أي: الدنيا ﴿لَا يَرْجِعُونَ﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَٰوَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

أي: أن الناس لا يرجعون إلىٰ الدنيا بعد موتهم ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتْ﴾ أسوار ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ وخرجوا ﴿هُم﴾ علىٰ الناس، وصاروا ﴿مِّن كُلِّ حَدَبٍ﴾ مرتفع من الأرض ﴿يَنسِلُونَ﴾ يسرعون.

﴿و﴾ بهذا يكون قد ﴿ٱقْتَرَبَ ٱلْوَعْدُ ٱلْحَقُّ﴾ وهو مجيء يوم القيامة. وبالفعل تقوم القيامة وساعتها يرجعون أي: الخلق كلهم ﴿فَإِذَا هِىَ شَٰخِصَةٌ أَبْصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مفتوحة عيونهم لا تغلق، مأخوذة قلوبهم من هول ما يرون، يقولون: ﴿يَٰوَيْلَنَا﴾ يا هلاكنا يا حسرتنا ﴿قَدْ كُنَّا﴾ في الدنيا لاهين ﴿فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ الذي نراه ﴿بَلْ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ لأنفسنا بعدم الإيمان، واتباع الرسل، وعمل الصالحات.

ثم يهدد ربنا كفار الدنيا كلها قائلًا:

﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّكُمْ﴾ أيها الكفار ومَن ـ معكم ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من ماء، أو صنم، أو طاغية، أو نساء، أو هوى، أو غير ذلك، تكونون يوم القيامة ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ أي: وقودها، واعلموا أنكم ﴿أَنتُمْ﴾ ومَن معكم مَن تعبدون من دون الله ﴿لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ داخلون، معذبون. لاحظوا ﴿لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً﴾ كما زعمتم ﴿مَّا وَرَدُوهَا﴾.

﴿و﴾ لكن ﴿كُلٌّ﴾ منكم ومنهم ﴿فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ مخلدون، لا يخرجون منها أبدًا. فهل هؤلاء آلهة؟ لقد خاب في الدنيا الكافرون، ودخلوا في الآخرة جهنم. وصار

﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أنين، وبكاء، وعويل، ﴿وَهُمْ فِيهَا﴾ كذلك ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ شيئًا، من شدة غليانها.

رأينا حال الأشقياء، أبعدنا الله وإياكم عنهم، فلنتعرف على حال السعداء، جعلنا الله وإياكم منهم، يقول الله تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾

يعني: ﴿إِن﴾ هؤلاء الأنبياء ومَن تبعهم من أممهم، هم ﴿ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ وهي التوفيق للطاعة، والبشارة بالثواب عليها. يخبر عنهم ربهم بالآتي:

أولًا: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ عن جهنم ﴿مُبْعَدُونَ﴾ أي: عن عذابها.

ثانيًا: كما أنهم ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ﴾ صوتها، بسبب بعدهم عنها، وحمايتهم من الاقتراب منها.

ثالثًا: ﴿وَهُمْ﴾ فوق ذلك ﴿فِى مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ﴾ من النعيم ﴿خَٰلِدُونَ﴾.

رابعًا: ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ عند دخول النار؛ لأنهم ينجون منها.

خامسًا: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ﴾ تستقبلهم ﴿ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ عند خروجهم من القبور، وعند دخولهم الجنة، تقول لهم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ السعيد ﴿ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ به في الدنيا.

نعم.. ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾..

﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾﴾

يعني: يكون ذلك في يوم القيامة ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ نجمعها ﴿كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ﴾ وهو صحائف الأعمال ﴿لِلْكُتُبِ ۚ﴾ أي: للمكتوب فيها. وهكذا.. ﴿كَمَا

﴿بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ﴾ من العدم ﴿نُّعِيدُهُۥ﴾ بعد الموت.

﴿وَعْدًا عَلَيْنَآ﴾ فعله، بسبب إخبارنا عنه، وتعلق علمنا بوقوعه.

﴿إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ لهذا الوعد فاستعدوا له: بالإيمان، وصالح الأعمال.

كان ما سبق، ما وعد الله المؤمن في الآخرة، وأما ما وعده به في الدنيا، فيقول الله عنه:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾﴾

يعني: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ﴾ وهو كتاب داود عليه السلام ﴿مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ وهي التوراة ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ الذين آمنوا وعملوا الصالحات.

﴿إِنَّ فِى هَٰذَا﴾ القرآن ﴿لَبَلَٰغًا﴾ بذلك ﴿لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ﴾ موحدين.

ثم يقول ربنا لحبيبه ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾

وتتجلىٰ هذه الرحمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة معًا، وهي كذلك للكافرين، ولكن في الدنيا فقط؛ أَخَّرَ الله بسببه عنهم عذاب الإهلاك التام، والمسخ، والخسف.

وعلىٰ هذا..

﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ للجميع ﴿إِنَّمَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ من ربي ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ لا شريك له ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ منقادون لهذا الوحي وما فيه من

توحيد الله، وعبادته، والعمل بتشريعه؟ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ عنك، وأعرضوا عن الإسلام ﴿فَقُلْ﴾ لهم ﴿ءَاذَنتُكُمْ﴾ أعلمتكم ﴿عَلَىٰ سَوَآءٍ﴾ جميعًا، لم أترك منكم أحدًا، ولم أخصص منكم أحدًا، ﴿وَإِنْ﴾ أي: وما ﴿أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ به من يوم القيامة، وعذابكم فيه، حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه وحده الذي ﴿يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾.

﴿وَإِنْ﴾ أي: وما ﴿أَدْرِىٓ﴾ كذلك ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ أي: إخفاء موعد القيامة، أو تأخير العذاب عنكم ﴿فِتْنَةٌ﴾ اختبار ﴿لَّكُمْ﴾ كذلك ﴿مَتَٰعٌ﴾ تتمتعون فيه ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ موتكم.

هذا، وبعد أن أدّىٰ محمد ﷺ الأمانة، وبلغ الرسالة، وآذنهم علىٰ سواء، وحذرهم بغتة البلاء: توجه إلىٰ ربه الرحمٰن:

﴿قَٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ﴾ عليه الصلاة والسلام، ﴿رَبِّ﴾ احكم بيننا وبين الكافرين ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ العدل الذي أنت أهله، ثم قال ليختم كلامه، وتختم السورة: ﴿وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ العطوف علىٰ خلقه ﴿ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ وحده، فلا معونة إلَّا منه ﴿عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ وتقولون من الكذب.

* * *